عذابها كان غرامًا!

حدث ذلك في أربعينيات القرن الماضي!

كان الكاتب الكبير «محمود السعدني» في زيارة لمنزل صديقه المبدع «زكريا الحجاوي»، وبصحبته رسام الكاريكاتير «طوغان».

وحين دخلا إلى البيت، وجدا شخصًا لم يرياه من قبل جالسًا في البيت، فسألا «الحجاوي»: «مش تعرّفنا على ضيفك؟».

فأجاب «الحجاوي»: «هذا الشخص سيحكم مصر في يوم من الأيام».

فضحك السعدني، وقال ساخرًا: «ده هيحكم مصر.. ده شكله مخبر»!

والتزم الضيف الذي كان خارجًا لتوه من السجن الصمت، ولم يُعلِّق، وجلسوا يتسامرون، ويضحكون لساعات، وتعددت اللقاءات بين الأصدقاء الأربعة في بيت «الحجاوي»، وعلى مقهى «محمد عبدالله» في الجيزة. ودارت بينهم أحاديث كثيرة في السياسة، والثقافة، وكانت النُّكت السياسية والسخرية من المَلِك والحكومة حاضرة في أغلب اللقاءات، وكل واحد من الأربعة يروي النُّكت بطريقته، ويسخر من الأوضاع وفق توجهاته، وكان هناك اتفاق في الآراء على حاجة البلد إلى التغيير.

وقامت ثورة يوليو، واكتشف الجميع أن هذا الشخص الذي التقوه في منزل «الحجاوي» من أعضاء مجلس قيادة الثورة.

ومرَّت سنوات طويلة.

ورحل «جمال عبد الناصر»، وصار الشخص الذي كان يجلس معهم في المقهى سيادة الرئيس محمد أنور السادات!

وتحققت نبوءة «الحجاوي»، لكن ما لم يخطر بباله، هو ما سيحدث له، ولرفيقيه «السعدني» و«طوغان» بعد أن يصير رابعهم رئيسًا، فلم تكن المفاجأة من النوع الذي يمكن توقُّعه!

فـ«زكريا الحجاوي»: قرر الرئيس السادات فصله من جريدة «الجمهورية»، فاضطر إلى أن يذهب إلى قطر، وظل يعمل هناك لمدة أربع سنوات حتى رحيله.

و«أحمد طوغان»: اضطر إلى أن يسافر إلى ليبيا، وعمل في جريدة «الفجر»؛ لكنه عاد.

أما «محمود السعدني»: فقد صدر قرار باعتقاله بتهمة محاولة قلب نظام الحكم!

بينما كانت التهمة الحقيقية هي أن «محمود السعدني» في أثناء جلوسه مع أحد أصدقائه، علق ساخرًا على اختيار السادات رئيسًا للجمهورية بقوله: «جالنا قبله واحد موّتنا من الخوف.. وده هيموّتنا من الضحك».

وقد جاءت هذه النُّكت في التحقيق مُسجلة على شرائط؛ لكن لم يتم ذكرها في المحكمة!

ما جرى بين السعدني والسادات يرسم بوضوح صورة العلاقة بين الكاتب والرئيس في مصر، وربما في الوطن العربي، وربما في العالم أجمع.

فالرئيس يَعتبر الكاتب بمثابة «لوحة النيشان» المُعلقة على الحائط، وفي يديه عدد كبير من الأسهم يطلقها على الكاتب وقتما يشاء دون ضابط أو معيار واضح سوى قناعة الرئيس.

فالعلاقة بين الكاتب والرئيس -أو بين المَلِك والكتابة- بالغة التعقيد والغرابة!

الرئيس يريد تصفيقًا حادًّا، وتهليلًا مبالغًا فيه، واتفاقًا على طول الخط، وشيكًا على بياض، وانصياعًا تامًّا، ودفاعًا مستميتًا، وطاعةً عمياء، وتقديرًا لكل أفكاره، وتبجيلًا لرؤيته، واندهاشًا من قدرته، وحديثًا دائمًا عن إنجازاته، واعتقادًا راسخًا بأنه لا يخطئ؛ لذا يبحث عمن يتفق معه، ويوافقه الرأي، ويُعجب بأفكاره، ويفتح فمه مندهشًا من عبقريته.

وبالتالي فالخلاف بين الكاتب والرئيس شبه محتَّم ما دام الكاتب حُرًّا، ومبدعًا، وخلاقًا، وصاحب موقف، ولديه رأي، ويملك رؤية.

لكن الأزمة تبدأ حين يتحول الاختلاف إلى خلاف حاد، ثم ينتقل إلى مرحلة الصدام الذي دائمًا ما يدفع الكاتب ثمنه وحده، فالرئيس عادةً لا يدفع الثمن، والدلائل كثيرة جدًّا.

فحين قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ كان «إحسان عبد القدوس» يعد من أسباب قيام الثورة، وذلك بشهادة «جمال عبد الناصر» نفسه، وذلك بعد أن فجّر قضية الأسلحة الفاسدة في حرب فلسطين.

وكان «إحسان» الوحيد الذي ينادي «جمال عبد الناصر» بـ«جيمي»؛ لكن بعد أقل من عامين من قيام الثورة تم القبض على «إحسان» واعتقاله بتهمة محاولة قلب نظام الحكم، وذلك بسبب مقال كتبه في مجلة «روزاليوسف».

وحين قرر الرئيس السادات الإطاحة برجال عبد الناصر في ١٥ مايو ١٩٧١ فيما سماه الرئيس «ثورة التصحيح»، كان «محمد حسنين هيكل» مسانِدًا له.

لكن بعد ثلاث سنوات وصلا إلى مفترق الطرق، وتمت الإطاحة

بـ«هيكل» من «الأهرام»، وبعد سبع سنوات أصدر السادات قرارًا باعتقاله.

وكأن هذا هو قدر الكاتب الحق، والثمن الذي لا بد أن يدفعه ليبقى حُرًّا، وهذا هو قدر الصحفيين، وعذاب الصحافة؛ لكنّ عذابها كان غرامًا!

قصة الصحافة ليست قصة مهنة، وإنما قصة بلد بكل ما فيه، ومن فيه من مبدعين ومُدَّعين، ولصوص وشرفاء، وأثرياء ومُهمّشين، وأبطال وخونة، ومشهورين ومغمورين، وزعماء وظرفاء، ومهرة وعجزة، وعلماء وجهلاء، وعبيد وأحرار، وكذابين وأتقياء، وانكسارات وانتصارات.

وقد اخترت أن أكتب قصة كل عام بصورة منفردة، ففي كل سنة هناك مئة ألف قصة، ولكل قصة ألف شاهد، ولكل شاهد مئة رواية، ولكل رواية عشرات المؤيدين، ولكل مؤيد حجته وأسانيده ودوافعه وأسبابه، ولكل سبب وجاهته؛ لكن حتى إذا عُرف السبب لن يبطل العجب!

فلا توجد حقيقة مُطلقة، ولا مُسلمات، ولا جواب نهائي، ولا حُكم باتّ، ولا انحياز مُطلق، ولا كلمة أخيرة، ولا فصل خطاب.

فكلما ظننتُ أنني أمسكتُ بالحقيقة المطلقة تذكرتُ أن بعض الظن إثم، وكلما أحسست بالإنجاز انتابني شعور بالعجز، وكلما تخيلتُ أنني قد وصلت إلى كلمة النهاية علمتُ أنها مجرد حلقة في البداية، وكلما ارتويتُ من المعرفة اكتشفتُ أن ما عرفته لا يصل إلى قطرة ماء في محيط، وكلما شعرتُ بالامتلاء الشديد أجدني أشعر بالخواء الشديد، وكلما اهتديتُ إلى اليقين وجدته مراوغًا، وكلما اقتربت من القول الفصل وجدته مجرد فصل في رواية بلا نهاية.

فإن كنتَ تبحث عن القول الفصل فلن تجده، وإن كنت تريد جوابًا نهائيًّا فهذا ليس متوفرًا في هذا الكتاب.

obeikandl.com